كتاب "جوهرة العالم:

كيف أنشأ المسلمون والمسيحيون واليهود حضارة التسامح في إسبانيا العصور الوسطى"

بقلم: جين لامبمان Jane Lampman

ترجمة: عمر عثمان جبق

محاضر في قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين في جامعة الملك سعود – الرياض

الكتاب: "جوهرة العالم: كيف أنشأ المسلمون والمسيحيون واليهود حضارة التسامح في إسبانيا العصور الوسطى"
المؤلف: ماريا روزا مينوكال

كان يا ما كان في قديم الزمان في مكان ما من هذا العالم المعمور كان هناك مسلمون ويهود ومسيحيون عاشوا مع بعضهم البعض، وشكّلوا حضارة استثنائية تنبض بالحياة. قد تبدو هذه القصة إحدى الحكايات الخرافية بالنسبة للأوقات المضطربة التي نعيشها حاليًا. وما يزيد هذه القصة إثارة وغرابة هو أنها قصة حقيقية تعجّ بالشخصيات البارزة والدروس التي تدعو للتأمل في زماننا هذا، بالإضافة إلى الإنجازات الفريدة والعثرات أيضًا.

يصف كتاب (جوهرة العالم) حقبة زمنية في إسبانيا العصور الوسطى امتدت من عام 750 حتى عام 1492 م، حيث تصادمت الديانات الثلاث الموحدة وتمازجت، وأنتجت ثقافة متسامحة وغنية، وبذلك يكون هذا الكتاب قد أعاد للحياة زمانًا ومكانًا تجاهله التاريخ الغربي تجاهلاً كبيرًا.

وكانت اللغة العربية اللغة السائدة آنذاك، وشغل المسيحيون واليهود مناصب مرموقة ورفيعة في الحكومة والمجتمع المسلم. وكان ازدهار الفن والفلسفة والعلوم شيئًا عظيمًا جدًّا بحيث إن المسيحيين في شمال أوروبا كانوا يعدون الأندلس مركز القارة الأوروبية الفكري. ولقد أعادت الأندلس تشكيل تاريخ أوروبا رأسًا على عقب من خلال مكتباتها الرائعة وثقافة الترجمة التي كانت رائجة آنذاك؛ مما ساعد على إنهاء حقبة عصور الظلام في أوروبا.

إلا أن قوى التطهير الثقافي والتعصب الديني التي جاء بها مسلمو شمال إفريقيا ومسيحيو شمال أوروبا أدت إلى تدمير هذا العالم المزدهر والنابض بالحياة تدميرًا مأساويًّا.

تحكي لنا الكاتبة ماريا روزا مينوكال Maria Rosa Menocal وهي أستاذة جامعية مختصة باللغتين الإسبانية والبرتغالية في جامعة يال Yale University هذه القصة المثيرة من خلال سلسلة من الصور الموجزة التي تستحضر المراحل الثقافية المختلفة لحقبة زمنية امتدت حوالي 700 سنة، وتقدم لنا أعلامًا فكرية مؤثرة من هذه الديانات الثلاث.

والشخصية الأساسية جدًّا في قصتها هذه تتمثل في أمير شاب مسلم ينحدر من سلالة بني أمية التي حكمت الإمبراطورية الإسلامية في القرن الثامن الميلادي. هذا الأمير هو عبد الرحمن الداخل الذي فرّ من موطنه دمشق إلى شمال إفريقيا وصولاً إلى مياه قرطبة في شبه الجزيرة الإيبيرية، بعدما قتلت إحدى القبائل المنافسة عائلته كلها في عام 720 م. وهناك ولدت حضارة جديدة بفضل رؤيته الثاقبة وقيادته الحكيمة. وكانت رحلته الشاقة وحنينه لوطنه الأم واضحًا من خلال حياته. فقد عبر عن مشاعر الغربة والمنفى هذه في أبيات شعر أنشدها، إذ يقول فيها مخاطبًا إحدى أشجار النخيل:

تبدَّتْ لنا وسط الرُّصافة نخلةٌ
تناءتْ بأرض الغربِ عن بلدِ النخلِ
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وتقول الكاتبة مينوكال: «عرّف الأمويون الذين خرجوا من الصحراء العربية نظيفين نقيين مفهومهم للإسلام كدين أحب حواراته مع العادات الأخرى». وتتابع قائلة: «كان هذا إنجازًا بارزًا جدًّا بحيث اتهم المؤرخون المسلمون اللاحقون الأمويين بأنهم أقل إسلامًا بسبب ذلك المفهوم».

وتعزو الكاتبة هذا التعقيد إلى المحافظة الدائمة داخل الخيال العربي على الإسلام والحب الشديد للغة والشعر الذي كان جزءًا لا يتجزأ من التقاليد العربية قبل الإسلام.

كان معظم اليهود والمسيحيين الذين يعيشون في أيبيريا معرّبين اعتنقوا اللغة العربية والثقافة التي أنشأتها تلك اللغة. إلا أن المسلمين العرب لم يطلبوا إليهم التخلي عن معتقداتهم الدينية؛ مع أن بعضهم فعل ذلك. ولقد تحسنت مكانة اليهود الذين قادوا «حياة مأساوية في ظل القوطيين» تحسنًا كبيرًا؛ واعتلى الكثير منهم مناصب رفيعة. فكان هناك على سبيل المثال هاسداي ابن شابروت أحد الوزراء اليهود الكبار لقرطبة في منتصف القرن العاشر الميلادي؛ وكان يدير العلاقات الخارجية للخليفة.

كان الكاتب الساكسوني هروسيوزا Hroswitha في القرن العشرين هو من أطلق اسم (جوهرة العالم) على مدينة قرطبة التي كانت مدينة غنية بآلاف المحلات والمساجد والحدائق والقصور والمياه الجارية والشوارع المرصوفة والمضاءة. فقد كانت مكتبة الخليفة (وهي مكتبة من أصل سبعين مكتبة في المدينة) "تضم 400000 مجلدًا في الوقت الذي لم تكن أضخم مكتبة في أوروبا المسيحية تضم أكثر من 400 مخطوطًا".

فمن الأندلس جاءت الحكايات التي أنتجت شكلاً جديدًا من الأدب في أوروبا والأغاني التي ألهمت الشعراء المغنيين الفرنسيين والعجائب العمرانية للعالم كلّه. كما و زودت الأندلس أوروبا بالترجمات اللاتينية لأعمال الإغريق بمن فيهم الفيلسوف أرسطو.

وكانت الطريقة التي تجاوز المجتمع من خلالها الخلافات الدينية وتقبل ذاك التعقيد حتى خلال أوقات الاضطرابات السياسية طريقة تحررية ملهمة. انتهى الحكم الأموي عام 1013 عندما فتحت الجيوش البربرية القادمة من شمال إفريقيا قرطبة وانقسمت الأندلس إلى عشرات الدويلات. إلا أن الحياة الثقافية متعددة الأوجه ازدهرت لحوالي 450 سنة أخرى.

وتوضح لنا الكاتبة أن تلك الحقبة لم تكن خالية من العنف والاضطهاد – فقد كانت هناك مجازر وشهداء. حتى إن مفهوم البرابرة للإسلام تسبب في خلافات وصراعات بين المسلمين أنفسهم. كما وتسببت عقلية "الحروب الصليبية" المسيحية القادمة من أوروبا في حروب بدأت في القرن الثالث عشر "لإعادة فتح" شبه الجزيرة الإيبيرية.

ويعدّ ضريح ملك صقلية المسيحي فرديناند الثالث المتوفى عام 1252 م رمزًا للثقافة الأندلسية، وتغطي هذا الضريح نقوش مكتوبة باللغة العربية واللاتينية والعبرية والإسبانية. وكذلك الأمر بالنسبة للكنيست اليهودي في مدينة طليطلة الذي يمتاز بالنقوش المحفورة باللغة العربية والعبرية.

وتتساءل الكاتبة الأستاذة مينوكال عما قد يكون قد حدث لو كان فرديناند و إيزابيلا رفضا الضغوط من الكنيسة بعد فتح غرناطة آخر مدينة يحكمها المسلمون في عام 1492، و اختارا عدم اتخاذ الخطوة النهائية في طرد كل المسلمين واليهود الذين رفضوا اعتناق المسيحية. ومن ثم أعطيا المحكمة الكاثوليكية الرومانية صلاحيات مطلقة. extreme

يصور كتاب (جوهرة العالم) نطاقًا واسعًا من تلك الحضارة الغربية يمتد من الشعر إلى الإنجازات العلمية والاجتماعية. ويرغب المرء أحيانًا بالتوقف والتأمل مليًّا بالحياة اليومية والأشخاص الاستثنائيين الذين شكلوا ذلك المجتمع الفريد، ويأتي هذا الكتاب الرائع والطموح في وقت مبشر بالخير ليعيد لنا تاريخًا ضائعًا تتناغم عبره ودروسه تناغمًا كبيرًا مع الخيارات الواجب اتخاذها اليوم.

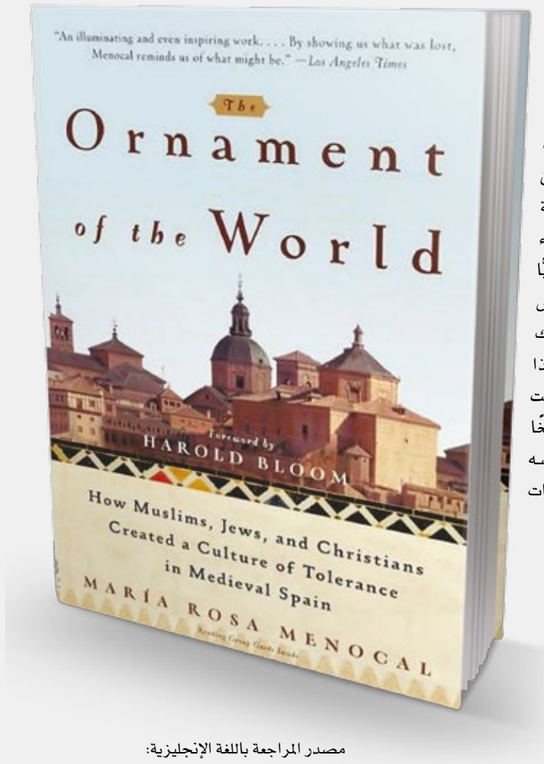

«كان معظم اليهود والمسيحيين الذين يعيشون في أيبيريا معرّبين اعتنقوا اللغة العربية والثقافة التي أنشأتها تلك اللغة. إلا أن المسلمين العرب لم يطلبوا إليهم التخلي عن معتقداتهم الدينية؛ مع أن بعضهم فعل ذلك.»

«كان الكاتب الساكسوني هروسيوزا Hroswitha في القرن العشرين هو من أطلق اسم (جوهرة العالم) على مدينة قرطبة التي كانت مدينة غنية بآلاف المحلات والمساجد والحدائق والقصور والمياه الجارية والشوارع المرصوفة والمضاءة.»

مصدر المراجعة باللغة الإنجليزية:
http://www.csmonitor.com/20020725//p15s02-bogn.html

جذور ثقافة الكراهية:

«التشيع العربي والتشيع الفارسي»

لنبيل الحيدري

البروفيسور: مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:

معهد تاريخ الطب والعلوم

عند العرب والمسلمين

(www.ihams.org)

عن دار الحكمة بلندن صدر كتاب «التشيع العربي والتشيع الفارسي» للباحث نبيل الحيدري، الذي قدم فيه دراسة أكاديمية مستفيضة تختزل عصور التاريخ الإسلامي بعد مسح واسع وغربلة لمراجع تنيف على 1255 مصدرًا. ويهدف الكتاب إلى سبر «جذور ثقافة البغض والكراهية بهدف تصحيح الممارسات التي جاءت بتراكم البدع والهرطقة المستوردة من هنا ومن هناك، بما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة».

بادئ ذي بدء، يُعرّف المؤلف التشيع العربي على أنه تشيع الإمام علي بن أبي طالب الذي يمثل الأساس الذي يجب أن ينبني عليه التشيع من مبادئ وقيم وعقائد وثقافة. ويعرض المؤلف الصور الناصعة لعلاقة الإمام علي بن أبي طالب الشخصية بالصحابة لا سيما الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه فضلاً عن الزواج والمصاهرة وتسمية أبنائه بأسمائهم.

ثم ينتقل الكاتب إلى كشف التأثيرات الفارسية التي تمثلت في الدول المتعاقبة الثلاث: البويهية في بغداد، والعبيدية في مصر، والصفوية في إيران، ومن قبلها بذور الغلو المتمثلة بتأثير عبد الله بن سبأ اليماني في تحريف التعاليم الإسلامية بما يشبه ما قام به بولص في تحريف النصرانية.

ويسهب المؤلف في خطر الدولة البويهية (334 – 447هـ/ 946 – 1055) كونها المنبع الأيديولوجي الذي ترعرعت فيه أولى البدع والغلو الغريبة عن العقيدة الإسلامية متمثلاً بتأليف الكتب الحديثية الأربعة: (الكافي) للكليني، و(من لا يحضره الفقيه) للصدوق القمي، و(التهذيب)، و(الاستبصار) للطوسي. واحتوت هذه الكتب على آلاف من الأحاديث لغُلاة لا علاقة لهم البتة بأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا أقوال علي بن أبي طالب ولا الحسن أو الحسين (رضي الله عنهم جميعًا)، هذا إضافة إلى كتب (المفيد) في ثقافة البغضاء والتكفير بعد أن درس على يدي ثلاثة من فقهائهم: الصدوق القمي، وابن قولويه القمي، وأبى الحسن القمي.

وبعد ذلك، يعرض المؤلف للفرق الإسلامية والفرقة الناجية في حديث ورد في سنن الترمذى وابن ماجه وأبي داود والحاكم وابن كثير، والفرقة الناجية يصفها الرسول بعد أن سُئل، بقوله: «الذين هم على ما أنا عليه اليوم وأصحابي» يقصد سنته المطهرة وسيرة صحابته الكرام، خصوصًا الخلفاء الراشدين الأربعة.

كما ويركز المؤلف على المرجعين الأساسيين للأمة الإسلامية: القرآن والسنة، كما في قول علي في (نهج البلاغة): «والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ، نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا به فاتّبعته، وما استنّ النبي فاقتضيته».

ولقد اشترك الإمام علي في حروب الردّة أيام الخليفة الأول، كما وقف على قبره بعد وفاته قائلاً: «رحمك الله يا أبا بكر، كنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدّهم يقينًا..»، وقوله في فضل الشيخين: «خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر» كما ينقله الطوسي والمرتضى وغيرهما، بل إنّ الإمام عليًّا منع الناس من الهجوم على بيت الخليفة الثالث ودافع عنه وأوقف على داره ولديه الحسن والحسين سبطي رسول الله وسيدي شباب أهل الجنة كفدائيين دفاعًا عنه. ولقد زوّج ابنته أم كلثوم للخليفة عمر بن الخطاب وأنجبت له زيدًا ورقية، وكان زيد يفخر دومًا أنه «ابن الخليفتين»، ويقصد عمرًا وعليًّا. كما تزوج علي من أرملة أبي بكر، أسماء بنت عميس. وأما جعفر الصادق فكان يفتخر دومًا قائلاً: «أولدني أبو بكر مرتين» مرة والدته: فاطمة بنت القاسم بن أبي بكر، ومرة أم أمه فاطمة: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وهكذا يكون أولاد الصادق من الأئمة: موسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، وما يسمونه بالمهدي المنتظر، كلهم ينتسبون إلى أبي بكر مرتين، شاء من شاء وأبى من أبى، وهذا يرد الكثير من أحاديث الكراهية.

بل إنّ الإمام الحسن صالحَ معاوية بوثيقة الصلح عام 40هـ، واستمر الحسين بالصلح مع معاوية لعشر سنوات بعد وفاة أخيه الحسن، ثم يأتي ابنه علي بن الحسين السجّاد، وهو يدعو الله تعالى لبني أمية في حفظ ثغور المسلمين قائلاً كما ورد في الصحيفة السجادية: «اللهم حصّن ثغور المسلمين بعزتك، وأيّد حماتها بقوتك، وأسبغ عطاياهم من جدتك، وكثّر عدّتهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، وألطف لهم في المكر». بل قد جاء في تفسير الحسن العسكري: «لقد قال الله لموسى: يا موسى أما علمت أن فضل أمة محمد على جميع الأمم كفضلي على جميع خلقي، وفضل صحابة محمد على جميع صحابة المرسلين كفضل آل محمد على جميع آل النبيين، وفضل محمد على جميع المرسلين».

ويذكر المؤلف مرجعيات شيعية عربية مثل محمد باقر الصدر الذي كان مجتهدًا يتعايش مع الناس ويواكب تطور المرحلة والعصر كما في كتابيه، (فلسفتنا) و(اقتصادنا)، وكان مجددًا ناقدًا في المجال الحوزوي الديني، حريصًا على وحدة المسلمين، ويرفض ثقافة التكفير والبغضاء.

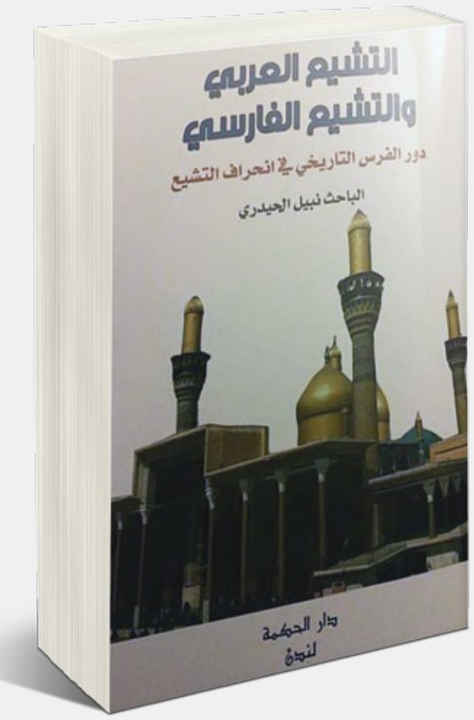

يهدف الكتاب إلى سبر «جذور ثقافة البغض والكراهية بهدف تصحيح الممارسات التي جاءت بتراكم البدع والهرطقة المستوردة من هنا ومن هناك، بما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة».

يركز المؤلف على المرجعين الأساسيين للأمة الإسلامية: القرآن والسنة، كما في قول علي في (نهج البلاغة): «والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ، نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا به فاتّبعته، وما استنّ النبي فاقتضيته».